شجرة الياسمين

بقلم
د. يوسف عزالدين عيسى

كانت احب الأزهار عندى أزهار الياسمين ، ولكننى كلما شممت الآن عبيرها عمرتنى موجة من الحزن والألم ورجعت بى الذكريات الى عدة سنوات خلت عندما كنا نسكن حدائق القبة بالقاهرة .

كان منزلنا ومنزل جيراننا تفصلهما حديقة واحدة متسعة . وكنت أقضى سحابة يومى فى عملى وأعود فى المساء متعبا ، فاستلقى على الفراش اقرأ بعض الصحف ثم أنهض فأتناول عشاءخفيفا وأعكف على المطالعة والكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل .

وكنت أحيانا عندما أمل القراءة ، افتح نافذة حجرتى التى تطل على ظهر منزل الجيران فاستقبل عبيرا منعشا منبعثا من شجرة ياسمين صغيرة تنمو على حائط منزلهم . وكنت لا أعلم عن هؤلاء الجيران أكثر من أنهم عائلة صغيرة ، رجل وزوجه وطفل فى نحو الخامسة من عمره ، ولا أذكر أننى رأيت الزوجة أكثر من مرة أو مرتين . وأذكر جيدا أنها كانت فى مقتبل العمر ، جميلة ، ذات وجه مرتاح العين لرؤياه .. وكان من عادة الزوج أن يرجع الى منزله متأخرا . فكانت الزوجة تظل مع طفلها فى المنزل حتى اذا ما تم نهيت هى متأخرة الى أن يعود الزوج ..

وذات مساء عندما كنت منصرفا فى القراءة سمعت الطفل يبكى بكاء شديدا وينادى أمه ، فلم أعره اهتماما فى أول الأمر . ولكن البكاء لم ينقطع ولم أسمع فى حياتى بكاء يفتت الأكباد كبكاء الطفل فى ذلك اليوم ..

فتحت النافذة وبادرت الطفل وسألته ما الذي يبكيه .. فأجابني وهو يجهش بالبكاء « امي » فقلت له « مالها ؟ هل صرعتك ؟ » فقال : « كلا .. لقد ماتت ! » فأسرعت انا وأخي وأختي التي كانت تقيم معي في ذلك الحين وذهبنا الى منزلهم .. وهناك في ذلك المنزل رأيت منظرا لن انساه .. امرأة جميلة فارقتها الحياة .. ملقاة على أرض الغرفة .. وعلى فمها شبه ابتسامة شاحبة .. وما كاد الطفل يراني حتى ألقى بنفسه علي وهو يبكي .. لقد توفيت تلك المرأة فجأة سكتة قلبية عاجلتها بينما كانت تداعب طفلها الصغير .. ولم يكن بالمنزل الا هي وهو .

ذهلت لاستدعاء الروح من العالم الذي اعتاد الجلوس فيه ، وتصحت عندما وجدته يستقبل الخبر برباطة جأش غريبة ، واسرع الى المنزل وقام بالاجراءات اللازمة في مثل تلك الاحوال ...

وبعد أيام قلائل من ذلك الحادث ، بينما كنت اسير في احد شوارع القاهرة المزدحمة صدمتني سيارة كانت مندفعة بسرعة جنونية ، فلم اشعر الا وانا بالمستشفى بين يدي الطب واتضح ان العمود الفقري قد اصيب واستغرق علاجي نحوا من ثلاثة اشهر قضيت من خلالها كل امور الدنيا ... والغائي ما اصابني عن التفكير في اي امر آخر ... ومرت الاشهر الثلاثة بطيئة متثاقلة ، وخرجت من المستشفى في نهايتها صحيحا معافا من اثر تلك الصدمة التي كدت أذهب ضحيتها .

وعندما رجعت الى المنزل كان اول شيء فعلته ان اسرعت الى نافذة حجرتي افتحها لاستقبل عبير الياسمين وحانت مني التفاتة نحو نافذة منزل الجيران

فوجدت امرأة لم ارها من قبل تطل من نافذة غرفة الطفل ، فسألت اختي عن هذه المرأة وهل هي ساكنة جديدة حلت محل العائلة الأولى التي كانت تسكن ذلك المنزل فاخبرتني اختي ان العائلة باقية كما هي لم تغادر المنزل ، وان هذه زوجة جديدة لذلك الرجل الذي فقد زوجته منذ ثلاثة اشهر .. فتألمت عندما علمت ذلك .. وظلت مدة طويلة اتحاشى فتح النافذة التي تطل على منزلهم حتى لا اثير في ذاكرتي حادث وفاة الزوجة الأولى ..

وعلمت فيما بعد ان تلك الزوجة الجديدة تقسو على الطفل المسكين وترهقه لأتفه الاسباب بعقوبات فوق طاقة سنه ، فكثيرا ما كانت تحبسه في الحجرة وتترك المنزل هي وزوجها لنزهة طويلة او مشاهدة السينما ، واحيانا كانت تهمل اغلاق نافذة حجرته وهو نائم في قمة ليالي الشتاء .. فظل النافذة طول الليل تتقاذفه سهام قنالة من البرد القارس ..

رجعت من عملي مبكرا في احد الأيام وفتحت النافذة فرأيت نافذة حجرة الطفل مفتوحة ورأيت شجرة الياسمين قد امتدت حتى لمست النافذة تقريبا وبعد قليل شاهدت الطفل مقبلا نحو

النافذة متواريت حتى لا يراني وظلت اراقبه خفية .. رايت على وجهه أثرا واضحا للبكاء ، ثم وجدته يصعد على كرسي ويطل من النافذة ثم يضع راسه بين يديه ويبكي بكاء حارا حتى ان الدموع كانت تتساقط من عينيه قطرات ...

وعند ذلك رايت منظرا عجيبا سأظل طول حياتي لا أدري له تفسيرا ... رايت قطرة من دموعه تسقط فوق شجرة الياسمين ، فشاهدت الشجرة تنتفض كانها تجهش بالبكاء .. ورايت الياسمين يتساقط منها كما تتساقط الدموع ...

هل اهتزت الشجرة من تلقاء نفسها؟ او هزها ريح قوي في تلك اللحظة ؟ لست ادري ... !

ويبدو أن هذا المنظر قد استرعى انتباه الطفل كما جذب اهتمامي لانني رايته يكف عن البكاء .. ويشخص ببصره نحو الشجرة مشدوها .. ومنذ ذلك الحين نشأت بين الطفل وشجرة الياسمين الفة وشبه اتصال روحي ! فكان كلما تألم فزع الى شجرة الياسمين كانه يبثها شكواه .. فذات مرة عند عودتي من خارج المنزل وجدت الطفل جالسا

عن أرض الحديقة عند جزع شجرة الياسمين ، وقد لف يديه حول الجذع ، واسند رأسه اليه وكان مستسلما لنوم عميق .. ذهبت نحوه وايقظته فرأيت في عينيه آثار الدمع ، فحاولت اقناعه بالذهاب الى المنزل فالشمس قوية والجو لا يطاق . فلم يقتنع ، وظل حالما بحوار جذع الشجرة .. لقد كان منظر الشجرة في ذلك اليوم يحمل معنى غريبا من معاني العطف على ذلك الطفل .. ولكن كيف ظهر لي ذلك ؟ لست ادري ولكني شعرت بذلك شعورا قويا ..

ومرت ايام واشهر ، وذلك الاتصال العجيب متمكن بين الطفل وشجرة الياسمين الصغيرة ، فكان كلما مرض الطفل ذبلت ازهار الياسمين وتساقطت واصبح منظر الشجرة يحمل معنى الحزن العميق الذي يشعر به كل من ينظر اليها دون أن يعرف السبب .

واذا تحسنت صحة الطفل انتعشت الشجرة وازدهرت .. حتى اني بدون أن اشعر اصبحت اعرف حالة الطفل بالضبط بمجرد النظر الى شجرة الياسمين ، فان كانت منتعشة مزدهرة فهو في حالة حسنة وان كانت ذابلة ، فهو في حالة سيئة ..

وفي صباح احد الايام نظرت فاذا الشجرة ذابلة وازهارها مطوية على نفسها ومكمشة ، فعلمت على صحة الطفل .. سألت عنه فعلمت انه مريض .. ذهبت الى منزله وكان ملازما فراشه ودرجة حرارته مرتفعة واحد يهذي .. وعندما رآني نظر الي باكيا وقال شجرة الياسمين .. ثم أغمض عينيه ونام ..

وفي اليوم التالي نظرت الى الشجرة فرأيتها ما زالت ذابلة ، بل اكثر ذبولا منها بالامس .. وهكذا ظلت الشجرة تذبل يوما بعد يوم وكذلك كانت صحة الطفل تسوء يوما فيوما ..

واصبحت عادة عندي أن ابكر في القيام واسرع نحو النافذة افحصها لأرى شجرة الياسمين .. ولكن في ذلك اليوم قمت كعادتي مبكرا وفتحت النافذة ونظرت فلم اجد اثرا لازهار الياسمين . بل كنت لا اجد اثرا لشجرة الياسمين نفسها ، فلقد تركت الشجرة الحائط الذي كانت قد تسلقته والتوت واصبحت كومة ذابلة ملوية على نفسها وملقاة فوق جذع جاف !

شعرت بالحزن يعصرني عندما شاهدت هذا المنظر وارسلت من يطمئني على صحة الطفل فعاد يخبرني ان الطفل قد فارق الحياة في منتصف الثالثة صباحا .. فاحسست كأن يدا لطمت قلبي ..

ومنذ ذلك الحين لم أفتح نافذة حجرتي المطلة على منزلهم اذ حيل الى كأن رائحة الحزن والاسى تفوح من حطام شجرة الياسمين ، وتراءى هذا الحطام لعيني كأنه مقبرة موحشة ..